

إعطاء القارئ خلاصة العمل صحيح على طبق من فضة و لكن مع حرمانه من متعة المشاركة والتفكير والإحساس خطوة بخطوة نحتاج في مصر إلى توثيق المفكرين لأفكارهم، لا أعلم إذا كان لدينا مشكلة في النشر أو في الطباعة أو في التسويق أو حتى في الرغبة في القراءة نفسها، ولكن ما أعلمه علم اليقين هو أنه ليس لدينا أزمة في المفكرين، ولكن إذا احجم كل مفكر عن إتمام عمل جميل كان قد بدأه بالفعل، فيما أنه ستصلنا أعماله كأعمال مبتورة (غالبا بعد رحيله عن دنيانا)، أو أن هذه الدرر ستذهب معه دون أن تدرى الأجيال القادمة عنها شيئا....فيا لها من خسارة!!!

الحلم (35)

في بيت العباسية ونحن نأوى إلى أسرتنا للنوم أيقظني صوت ابن أخى وهو يصيح حريق في السقف، ونهضت فزعا وجاء ابن أخى بالسلم الخشبي وأقمناه في الصالة وصعد كل واحد منا على جانب حاملا ما استطاع حمله من الماء وأخذ يرشه على النار السارية بين الأركان وأقتمت حجرة أختي وأيقظتها من نومها العميق ومن عجب أنها قامت متكاسلة ومتشاكية من أننا لا نتركها أبدا تنعم بالنوم وعلى أى حال ساعدتنا بملء الأوعية بالماء حتى سيطرنا على النار وأخمدناها. وبدأنا نحقق في الأمر ولكن رجال المطافئ حضروا على أثر استدعاء الجيران لهم وتأكدوا من خمود النار وفتحوا الشرفات وتفقدوا الأثاث الموجود بها وانتهى الحريق بعد أن أفحمننا فزعا. وعندما جلسنا نستعيد بعض هدوئنا دق جرس التليفون ويلاحظ هنا تداخل الزمان والمكان إذ أن بيت العباسية لم يكن به تليفون وهكذا أصبحنا في مسكن آخر مع أناس آخرين دق جرس التليفون وكان المتحدث صاحب العمارة التي أستأجرنا بها شقة في الإسكندرية ودعانا الرجل إلى الاسكندرية دون إبطاء وإن شئت النار داخل الشقة وطماننا أنه استدعى المطافئ فأخذوا النار ولكن حضورنا ضرورى بطبيعة الحال وفي الحال ارتدنا ملابسنا أنا وزوجتي وأسرعنا إلى محطة الباص الصحراوى وكنا في غاية الكدر والإنزعاج حتى أننى اقترحت على زوجتى إخلاء الشقة وتسليمها لصاحبها وأنها تعرضت إلى محاولة سرقة قبل ذلك ولكنها قالت لى انتظر حتى نرى ماذا ضاع منها وماذا بقى.

القراءة

عودة إلى العباسية والاسكندرية معاً، وتداخل جديد في المكان بالذات بين بيت العباسية والإسكندرية (راجع حلم 24)، وهما موقعان لهما مكانة خاصة عند شيخنا، العباسية بذكرياتها العاطرة الحاضرة، وشقة الإسكندرية القديمة بالمنشية التي سمته يحكى كيف كان يحمل هم نظافتها قبل شد الرحال إليها كل صيف، وذلك حين عرضت عليه شراء شقة بجوارى على البحر في بلاج السراى أبو هيف بثمن متواضع، وبالرغم من اقتناع زوجته الفاضلة بالفكرة، إلا أنه أصر على

الرفض، وعلل ذلك بأنه لا يريد حمل همّ نظافتها وصيانتها - أيضا - بما لا يطيق، العباسية هي الأصل، والإسكندرية هي حركة الصيف وتوفيق الحكيم (بترو) والنحاس باشا يتمشى، فينلخ قلبه حبا لرؤيته على الكورنيش... الخ

حرمته الظروف الأخيرة وقبل الأخيرة من روتينه السنوي الرائع بالذهاب إلى الاسكندرية، كما دفعته ظروف الدنيا والقدرة وتغير الأحوال إلى الانتقال إلى ما هو أحسن - شكلا - من شقة العباسية، لكن يظل المكانين هما المكانين ماثلان في وعيه، مضافة إليهما روائح بصمات القدم، والأصل، والخوف عليهما من مخاطر السرقة والاستيلاء (حلم 24)، أو الدمار (الحريق هنا).

المكان الثاني هنا الذى أعلن تداخل المكان والزمان ليس في الاسكندرية، كل ما يميزه هو أن به تليفون لم يكن في العباسية، ويبدو أن هذا المكان يقع في القاهرة، ليس به حريق ولا ابن أخ ولا أخت، هو مكان هادئ بلا مجتمع حيوى محيط، لم أستشعر فيه رائحة المكان الأول، ولا حتى رائحة الحريق، مكان هادئ بلا حركة ولا نبض للبشر الحقيقيين، صحيح أنه "أحدث" بدليل التليفون، لكن التليفون لا يفيد إلا للتواصل عن بعد، وأى تواصل؟ هذه هي الأخبار السيئة تصل عبر هذا التليفون بالذات، ومن الاسكندرية.

حريق العباسية حضره بنفسه، أما حريق الاسكندرية فقد أبلغ عنه بعد انتهائه، وماذا ينفع الذهاب إليها ليروا ما ضاع وما تبقى، فلتنقطع الصلة بالاسكندرية أيضا، ومن ثم الاقتراح بإخلاء الشقة، وقفل باب حمل همها، لكن يبدو أن الزوجة تظل تحتفظ بالأمل، أما هو فيبدو أنه يريد أن يتخلص منه (من الأمل) أكثر من رغبته في التخلص من الشقة.

لا أحد يعرف ماذا تبقى من أى شئ؟ بعد أى شئ؟

ويظل الكدر والانزعاج يعلنان رفض المفاجآت والتعرض للسرقة والدمار من جديد.

ماذا وسط الحلم تماما، يثبت محفوظ بالكلمات أنه "يلاحظ هنا تداخل الزمان والمكان"؟.

رفضت ذلك لأول وهلة، فهذه رؤية لاحقة، من حق الناقد أن يكتشفها ويعلق عليها، كما سبق أن وصلني في أحلام (18، 24)، وما قد يأتي بعد، فتساءلت: هل قفزت منه آلية الإبداع فأثبتتها داخل النص دون قصد؟ لا أعتقد أن مثل هذا يحدث هكذا من مبدع بلغ من سلاسة الطلاقة وإتقان الصنعة ما بلغه هذا العملاق.

هل هو بمثابة إحصار العين المراقبة للحلم داخل الحلم، مثلما يعلم الحالم وهو يحلم أنه في حلم؟

ربما.

لكنني أعترف - برغم تحفظي هذا - أن هذه الجملة الدخيلة لم تزعجني، بل أنستني بشكل مباشر.

لا أعرف لماذا؟

هذا الحلم يُظهر جانباً آخر من عالم محفوظ الداخلى، يقابل ولا يتناقض مع ظاهره الآمل المتفائل: التهديد بالحريق فالخراب، والتراجع عن الأمل والإصلاح.

لكن هذا الداخل هكذا ربما هو هو الذى يزيده إصراراً على مواصلة الإبداع والتنويع، وعلى التمسك بالحياة وقبول التحدى أياً كان المتبقى من واقع هذا الواقع المدمر بلا توان

ظهور الأخت هنا للمرة الثالثة حتى الآن، كان ظهوراً أثار عندى احتمالات غامضة، الأخت برغم انزعاجها من الإيقاظ القسرى الذى فرض عليها، سارعت بالمشاركة فى إخماد الحريق بلا تهاون.

لماذا أظهر محفوظ الأخت بهذه الصورة الناعمة الناعسة المقاومة، لتنتقل الصورة إلى الإسهام الإيجابي الطيب؟

ألهذا علاقة ما بما ذكرناه فى (حلم 9، وحلم 30)؟

ربما.

الحلم (36)

جمعنا بهو ما. ثمة وجوه أراها لأول مرة ووجوه أعرفها جيداً من الزملاء. وكنا ننتظر إعلان نتيجة يا نصيب. وأعلنت النتيجة وكنت الراجح وكانت الجائزة فيلا حديثة وحصل زياط وتعليقات وهانئ. لم تستطع وجوه كثيرة أن تخفى كمدما. وقال لى كثيرون إنه فوز ولكنه خازوق من أين لك المال لتأنيثها وتوفير أخدم اللازمين لها واستهلاكات الماء والكهرباء وخدمة حوض السباحة والتكييف الخ.

الحق أن الحلم مازال حلماً وما أنا أتفقد الفيلا كل يوم تقريباً وأرجع بالخيبة والخسرات. واستغل أناس قلة خيرتى واقنعوني ببيعها واشتروها بثمن فرحت به ساعات حتى تبين لى أننى خدعت وسرقت.

حدثت فى ذلك الوقت أن خلت وظيفت مدير عام وكثير التزاحم حولها والمرشجون وبطاقات ذوى النفوذ وقابلت الوزير وقلت له إننى لا وسيط لى سواه ولكنه قال لى إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص فكيف أأتمنك على المال العام.

وصرت نادرة ومثلاً فطلبت ضم المدة الباقية لى فى الخدمة لى خدمتى وإحالتى إلى المعاش وأخيراً وجدت الطمأنينة فى موضع لا يتطلع إليه طماع ولا ينظر إليه ذوو الطموح.

القراءة

البهو هنا يجمع الغائب بالحاضر، الجديد بالقديم، (قارن استعمال البهو المترامى الأركان المتعدد الأبواب حلم 4) هو مهبط الحظ ورضا القدر، هذه المرة لم تكن مكسباً فى مائدة المقامرة، حلم (28) ولكنه كان حظاً صرّفاً.

بدأ لي أن هذا الفوز "الغازوق" هو الحياة ذاتها، من لا يستطيع أن يملأها بما تستأهلها، من يفرط فيها قبل أن يبدأها، سوف تنزع منه وكأنه لم يدخلها.

لا أحد يعيش ليحقق ما يريد قبل أن يعيش أصلاً.

لا أحد يحصل على ما يريد إلا بعد أن "يوجد هو".

إذا كان هو قد فرط في حياته، فعجز أن يرعاها بحقها، ويعمرها بما يلزمها فهو ليس أهلاً لها، وليس جديراً بأن يكون له دور في حياة الناس.

المال العام هنا يمكن أن يكون دور الواحد منا لناسه: فرداً في مجتمع، أو حتى فرداً في نوع.

الانتهاء وبهذه الطمأنينة في موضع "لا بتطلع إليه طماع ولا ينظر إليه ذوو الطموح"، وصلني على أنه القبر.

ما هو يعلن نهايته إنسحاباً من حياة لم تبدأ أصلاً.

لم يقدرها صاحبها حق قدرها لأنه عجز أن يملأها بحقها، فيكون كائناً يستحقها، حياة لم يستطع أن يعيشها له، فكيف تسهم في إثراء حياة آخرين.

فانسحب إلى قبر يغرى بالطمأنينة العدم.

"ما عاش مَنْ لم يولد"

في قراءة اتى حلم (19) كتبت

"لا يكفي أن "توجد"، ولا أن يُسمح لك بالدخول، حتى "تكون": "نفع": "تُنجز، تقوم بدور ما في الحياة يؤكد وجودك".

ثم

"إنَّ من يتصور منَّا أن مجرد الاعتراف بوجوده (الشقة الجميلة، والسماح له بالدخول إلى السوق)، هو ميرر كاف لأن يكون له "دوره"، هو مخدوع، ومن ثمَّ هو مهدد بالطرده من الوجود".

وأهيته قائلاً

"من لا يجد له دور، فعليه أن ينسحب أو يقبل أن يُسحب منه الاعتراف بوجوده"

هل ثمة علاقة؟!!

كذلك قلت في قراءة اتى حلم (18) قائلاً

هكذا ضاع العمر دون أن يولد بعد،

هو مازال في القارب الذى كان الرحم، وهو هو القبر

وأخيراً

حضرني هذا الشطر حالا، وهو نهاية قصيدة كتبتها بعد زيارتي لأبي سمبل وتأملي وجه رمسيس تتعامد عليه الشمس، هذه النهاية تقول:

حَبَّكَ الوليدُ دثاره: كفنًا،
وبلا رثاءٍ وسدوه خذه: ... مهذا.
كتبوا عليه بلا دموغ:
ما عاشَ مَنْ لَمْ يولد.
ولكن إليكم القصيدة كلها:

موت الفخر

-1-

يا جدنا المصلوب زهواً يحصدُ الزمن،
قد صار محظوراً علينا نناقشُ القلوب
فوق هامات الحجر.
ما عاد يَجُرُّوْ عَيْنَا أن يفتخر: أننا بشر.
".. في البدء قَال أو فعل،
بصما على وجه الزمن،
إذ ينسجُ الفعلُ القدر"
في عَصْرنا هَذَا أَيَا جَدِي العزيز،
لا تطلُعُ الشمسُ دُونَ إِيذْن.
لا يُستبأخُ للكلابِ الأئمة - أمثالنا -
أن تسكنَ العرينُ

-2-

فرعونُ هذا العَصْرُ ثعلب،
أخفى المشانيقَ بين ثنياتِ التماوتِ والعفن.
في زعمِ حَبِّ العُدلِ لَوْحٍ بالتلاشي في الأمل.

-3-

حَبَّكَ الوليدُ دثاره: كفنًا،
وبلا رثاءٍ وسدوه خذه: ... مهذا.
كتبوا عليه بلا دموغ:
ما عاشَ مَنْ لَمْ يولد.
أسوان: 1981/1/23